لغةُ الشعر وطاقةُ الإبداع

أ. سليمان العيسى

١- لُغَةُ الشعر

قالَ صديقي، وهو يتلو أبياتًا من الشعر،
حفِظَها منذ أمدٍ، بعيد:
وزنٌ وقافية، وكلامٌ عربيٌّ سليم،
لا يعتريه خطأٌ ولا خَلَل،
وتقولُ لي: إنه ليس من الشعرِ في شيء.
فما لُغَةُ الشعر هذهِ؟ ماسرُّه؟
كيف أَضَع يدي عليه؟
هل لي أَن أَلمِسَ هذا السرَّ ولو بطَرَف بناني؟
أرجو أن تحلوَ ليَ المشكلة،
أو تضَعَني على حافَتِها على الأقل.
قلتُ بإيجاز:
سآتيكَ بمثال.. والمثالُ خيرٌ من الشرح؛
بيتَيْنِ من شعرنا القديم..
رُبَّما كنتَ قد حفظتَهما مثلي..
ثم أنقلكَ خطوةً خطوةً، وكلمةً كلمةً،
إلى مكان الجمالِ فيهما.. إلى لُغَةِ الشعر.

يقولُ الحطيئَة – تعرِفُ الحُطيئةَ طبعًا،

وتحفَظُ له على الأَرجح – مخاطبًا الخليفةَ عمر بنَ الخطاب،
وكان قد سَجَنه في قعر بئرٍ مُظلمة، كما تقولُ الرواية،
لذنبٍ اقتَرَفَه:
ماذا تقولُ لأَفْراخٍ بِذي مَرَخٍ
زُغْبِ الحواصلِ...
لاَ ماءٌ ولا شَجَرُ؟

أَلقيتَ كاسِبَهُمْ في قَعْرٍ مُظْلِمَةٍ
فاغْفِرْ – عليكَ سلامُ اللهِ – يا عُمَرُ
هذا السؤالُ الحارُّ المحرِج: ماذا تقولُ؟
والأفراخُ – أطفالُ الشاعر – ..
الزُّغْبُ الحواصل، المُلْقَون في وادي ذي مَرَخ،
المقفِر، القاحل، (لا ماءٌ ولا شَجَر)..
هذا الجو الرائع الذي استطاعَ الشاعر
أن يضعنا فيه، مع أطفاله المحرومين، في وادي ذي مَرَخ،
بهذه الكثافة من الألفاظ المشِعَّة، الموحية،
والصُّور البديعة..
هذا السؤال.. وما تلاهُ في البيت..
هو النبضُ الحي.. هو الشعرُ بعينِه..
السؤالُ نفسُه: ماذا تَقُول؟
طاقةٌ شعرية لا حدودَ لها..

ولغةٌ بعيدةُ الأَثَر في النفس..
نفسِ الخليفة، ونفسِ القارئ معًا.

ثم تبدأ لُغَةُ الشعر بفقدانِ طاقتها المِشِعَّة
شيئًا فشيئًا.. حين ننتقلُ إلى الشطر الأول
من البيت الثاني: ألقيتَ كاسِبَهم..
ولو ظلَّت حيَّةً نابضةً .. ولا سيَّما في «قعر مُظلمة».
ولكنَّ هذه اللغة تكادُ تفقد كلَّ حرارتِها ونبضِها
حين نصل إلى هذا الطَّلَب المقرونِ بالدُّعاء،
في الشطر الثاني من البيت: فاغفِرْ، عليكَ سلامُ اللهِ، يا عُمَرُ!
إنه كلامٌ يكادُ يكونُ عاديًا، مألوفًا، يقوله
أيُّ إنسان، ليس فيه شيء من جُهْدِ الخيال،
وطاقةِ الإبداع..
والشطرُ – إلى هذا كُلِّه – وزنٌ وقافيةٌ رنَّانة،
وكلامٌ عربيٌّ سليم،
لا يَعتريه خطأٌ ولا خَلَل..
آمُلُ أن أكونَ بهذا المثال العابر قد وضعتُ يدكَ
على حافَةِ السر .. في لُغة الشعر.
هزَّ صديقي رأسَهُ، وردَّدَ المثَل الشائع،
الذي يحفَظُه أيضًا منذُ أمد بعيد: صحيح..
ليسَ كلُّ مايَلْمَع ذَهَبًا.

٢– طاقةُ الإبداع

أنتَ لاتستطيعُ أَن تجمعَ أَزهارَ الحديقةِ كُلَّها
في إِضمَامة..
لابُدَّ أن يفوتَكَ كثيرٌ منها
وأنتَ تبحثُ عن اللونِ والعبير.
أعودُ إلى موضوع الحِوَار في .. لُغَةِ الشعر.

قرأَتْ تعليقي عنها مرتين..
ثم قالت – كان سؤالُها مفاجِئًا –:
هل يمكنُ أَن تكونَ وَمَضاتُ الإبداعِ كلُّها
في مستوىً واحدٍ من الجَمَال؟
هل يمكنُ أن تكونَ لُغَةُ الشعر
– التي تحدثتَ عنها – كلُّها رائعة؟

ألاَ يمكنُ أن تكونَ ومضةٌ أَروع،
وومضةٌ أقلّ روعةً، ووضةٌ تكاد تخبو،
ولكنَّها تظلُّ تنتمي إلى عالَمِ الوميض؟

قلتُ: هذا صحيح. الإبداعُ لا يمكنُ
أَن يكونَ باهرًا في كل شيء.
إنه أَشبه بِلَمَعان الكواكب في كَبِدِ السماء.
هناكَ ما لا يُحصى من ألوانِ الإشعاع والوَهَج:

القويُّ، والضعيفُ، والوَسَط
والذي نراه بوضوح، والذي لا يكادُ يُرى..
وما بين هذا كُلِّه..

ولكنَّه يظلُّ كلُّه ينتمي إلى عالَمِ الوميض،
كما ذكرتُ قبلَ قليل.
والبونُ شاسعٌ .. شاسعٌ.. بين الوميضِ والخمود.
قالت: هل لي بمثالٍ على ذلك؟
قلتُ: نعم ! هذا البيتُ الرائع لشاعرنا الأندلسي،
لا يَحْضُرني اسمُه الآن، يتحدث عن جدولٍ رَقراق:

تَرُوعُ حَصَاهُ حالِيَةَ العَذَارى
فتَلْمِسُ جانبَ العِقْدِ النَّظيمِ

أيةُ دهشةٍ هذه التي تَعتري الصِبيَّةَ الحسناء،
تقِفُ أَمامَ الجدولِ المنسابِ أَمامَها،
وتروعُها – والدهشةُ تتكثفُ في «تَروعُ» –
حصاهُ النقيَّةُ البرَّاقة..
فتلمِسُ جانبَ عِقْدِها الجميل..
خشيةَ أَن تكونَ حبَّاتُه قد انفرطَتْ في قاعِ الجدول.

لقد استطاعَ الشاعرُ أَن يكثِّفَ «الحالةَ» البديعة
في لونٍ من التركيبِ العجيب.. يشدُّك إلى

الدهشةِ والمُتْعَةِ في آن.

أمَّا بيتُه الآخر في المقطوعةِ نفسِها:

نَزلْنا دوحَةُ فَحنَا علينا

حُنُوَّ المُرْضِعاتِ على الفطيمِ

فإنه لا يخلو من ومضةِ جمالٍ هادئٍ، حميم، ولكنه لا يمكن أَن يكونَ بمستوى الوَهَج الذي نُحِسُّه في البيتِ الأولِ.

قالت: هذا – بالضبط – ماأَردتُ أَن أُنَبِّهَ إليه.

وشكرًا على أَنْ قمتَ بإيضاحِهِ في مثال.

قلتُ: إنه مثالٌ عابر أَوْمضَ في الذاكرة..

هناك أمثلةٌ كثيرة.. أجملُ وأكملُ..

بالتأكيد.